القادرية وموقفها من السياسة الفرنسية

الدكتور عميراوي احميده

جامعة عبد القادر

قسنطينة

مقدمة

يتفرد المجتمع الجزائري بظواهر حميدة متميزة وأصيلة تمس مختلف جوانب حياته مثل الظاهرة الروحية الطرقية والشريفية المرابطية، والشيخية القبلية، والمذهبية الدينية، والسلطانية العثمانية، والأسرية العرقية، والوضعية المدنية؛ وكلها تشكل مضامين التراث الثقافي الجزائري. وتحتل الطريقة القادرية مكانة مميزة في سيرورة وصيرورة هذه الحياة عبر التاريخ الطويل للمجتمع الإنساني، بعامة وللمجتمع الجزائري، بخاصة. وسنحاول في هذا المقام التحدث عن جانب من الحياة الروحية الخاصة يالطريقة القادرية من خلال النقاط الآتية:

1 - مختصر عن القادرية

2 - مؤامرة المخابرات الفرنسية ضد الهاشمي الشريف رحمه الله

3 - من علاقات شيوخ القادرية برجال السلطة الفرنسية

4 – استنتاجات

1 - مختصر عن القادرية:

من المتعارَف عليه أن القادرية تنسب إلى الشيخ القطب عبد القادر الجيلالي دفين بغداد (470 -562هـ/1078 -1167م)[□]. وتقوم على مبادئ منها "العلم والأخلاق والصبر والإتقان". ووهي ساعية إلى تحقيق جملة من الأهداف منها تصفية الروح، وتنقية المجتمع الإسلامي من الشوائب. ومن واجباتها وممارساتها ذكر الله والصدق، والابتعاد عن شؤون الدنيا وحب الناس وخوف الله سبحانه وتعالى [بر] وإعلاء كلمة الحق بقوة الإيمان وبمعرفة الحقيقة الإلهية. قال: أبو محمد عبد القادر الحسني الجيلالي سند العرب والعجم: "الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل" [تر].

□ - ولد سيدي عبد القادر الجيلاني في جيلان بجبال كركوك شمال العراق. واعتكف في بغداد على الدراسة بها والتضلع في الفقه الحنبلي. ثم التزم حياة الزهد والتصوف، فأسس طريقته الصوفية القادرية وكثر أتباعه، وانتشرت طريقته في بلدان المغرب العربي وفي إفريقيا السوداء.

بر - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي 1998، ص. 43 -44.

تر - الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني، **مختصر الغنية**، اختصره الشيخ الشاذلي الشاذلي، ج. 1، دار الهدى، الجزائر 1997، ص. 6، 14.

وإذا حاولنا معرفة أصل القادرية في الجزائر فإننا سنعود إلى أول مؤسس للتصوف السني في بلدان المغرب العربي ووأعني به أبا مدين شعيب بن الحسين المولود عام 500هـ/ 1104م والمتوفى عام 594هـ/1198م [4] الذي نقل مبادئ الطريقة القادرية ونشرها في بلاد المغرب العربي وفي غيرها من البلدان. هذا عن نشر التصوف السني أما عن جذور التصوف الفلسفي في المغرب الإسلامي فتعود على الأرجح إلى ابن مسرة الأندلسي (269 -381هـ)[5].

وفيما يتعلق بأبي مدين شعيب فهو أخذ الطريقة ولبس الخرقة على أكثر من شيخ؛ حيث أخذ التصوف العملي _لا العلمي_ على فضيلة الشيخ أبي يعزى الأيلاني يلنور المغربي (472هـ)[6]. وأخذ

4 - تعرف أبو مدين على عبد القادر الجيلالي في عرفة. وعاد إلى بجاية وتوفي رحمه الله في تلمسان. ومن أقواله في التوحيد: هو الحق ومنور القلب ومحرك الظواهر وعلام الغيوب...التوحيد أصل في الوجود وعليه أخذت المواثيق والعهود وهو دليل على كل مفقود فمن بقي على أصله فقد وفى ومن عدل عن رسمه فقد أخطأ الطريق وجفا.

5 - لمزيد من المعلومات يراجع: سعد خميسي، "حقيقة التصوف"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 12، الجزائر 2002، ص -ص. 76 -97.

6 - لمزيد من المعلومات يراجع: مجاني بوبة، "أبو مدين شعيب وشيخه أبو يعزى"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 8، الجزائر 2001، ص -ص. 172 - 180. وكذلك يمكن مراجعة عبد الوهاب فرحات: "أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف المغربي"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 13، الجزائر 2003، ص -ص. 84 -95.

التصوف العلمي على الشيخ عبد القادر الجيلاني وعلى تراث من سبقوه وفي مقدمتهم الجنيد البغدادي (297هـ). وبذلك يمكن اعتباره بحق شيخ أهل المغرب، مثلما دُعيَ عبد القادر الجيلاني شيخ أهل المشرق.

وممن تتلمذ على أبي مدين شعيب محي الدين بن عربي الأندلسي دفين دمشق [7] الذي وفد على بجاية عام (590هـ/1193م). وكذلك عبد السلام بن مشيش. إذ كان أبو مدين شعيب يدرس **الرسالة القشيرية** في التصوف لعبد الكريم القشيري (ت 462 هـ) **والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، لأبي حامد الغزالي (1059 -1111م). وورث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه عبد السلام بن مشيش صاحب كتاب **إعانة الراغبين في الصلاة** وهو يعتبر شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية القادرية. وقبل وفاة عبد السلام بن مشيش ورث طريقته الصوفية إلى تلميذه نور الدين أبي الحسن الشاذلي (592 -655هـ/1196 -1258م).

وبرز بعده شيوخ ومقدمون كبار لعبوا دورا كبيرا ورائدا في محاربة الاستعمار الأوروبي المسيحي، والوثنية الإفريقية طوال

7 - ولد محي الدين بن عربي في مدينة مرسية الأندلسية عام 560هـ/1165م. وانتقل إلى مدينة بجاية ثم إلى مصر والحجاز والعراق والموصل ودمشق وأقام بها إلى أن توفي عام 638هـ/1240م.

القرنين 18 و19 ومطلع القرن العشرين. وبانتشار التصوف في البلاد العربية انشطر المجتمع العربي الإسلامي سياسيا إلى ثلاث فئات وهي:

فئة السنيين الذين قالوا بوجوب الخلافة/الخليفة.

فئة الشيعة الذين قالوا بالإمامة/الإمام.

فئة المتصوفة الذين قالوا بالوَلاية/القطب. ومن ثمة صار التصوف الإسلامي ذا شقين جامعين لأغلب المسلمين؛ الشق الأول معرفي رباني. والثاني سني محمدي. أي أن التصوف مبني مثلما قال المتصوفة المسلمون على قاعدة هي: لا حقيقة من دون شريعة ولا شريعة من دون حقيقة.

وكان أساسُ الطريقة المَدْيَنية تعاليمَ كل من عبد القادر الجيلاني وأبي القاسم الجنيد. فمن بجاية ورث أبو مدين طريقته لعدد من تلاميذه وأبرزهم محي الدين بن عربي دفين دمشق، وعبد السلام بن مشيش. هذا الأخير ورثها إلى أبي الحسن الشاذلي. لأنه كان لأبي مدين تلاميذ ومن أشهرهم عبد السلام بن مشيش الذي كان له هو الآخر تلميذ مشهور هو أبي الحسن الشاذلي (593 - 656هـ) الذي ينسب إلى قرية شاذلة في تونس التي اختلى بها. ثم انتقل إلى مصر حيث توفي فيها. وعن هذا الأخير انتقلت مبادئ الطريقة

القادرية إلى الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي القادري، وإلى ابنه الشيخ محي الدين والد الأمير المجاهد عبد القادر.

ولد الشيخ محي الدين بن مصطفى بوادي الحمام (عام 1190هـ/1777م) 1249هـ/1833م. وخلفه ابنه محمد السعيد في رئاسة الزاوية بالقيطنة وابنه عبد القادر في حركة الجهاد والمقاومة.

والشيخ مصطفى بن المختار الغريسي القادري درس وتفقه في مدينة معسكر وأخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي القادري الشاذلي. وجدد أخذها في بغداد على مقدم الشيخ عبد القادر الجيلاني. وبعد عودته إلى الجزائر أسس زاويته بوادي الحمام في القيطنة بمعسكر عام 1206هـ/1791م. وهو أول من أسس فرعا بصفة رسمية وقوية للقادرية في الجزائر. وكان هذا الفرع يرسل الوقف إلى الزاوية الأم في بغداد.

وقد جمع الشيخ مصطفى بن المختار بين علم الشريعة ومعرفة الحقيقة. وكان من مريديه المصلح والمجاهد محمد بن عثمان الكبير باي وهران. والشيخ مصطفى بن المختار هو دفين عين غزالة في برقة الليبية (عام 1212هـ/1798م).

وفيما يتعلق بالقادرية يمكن العودة بالقول إنها أساس ومنطلق كل الطرق الصوفية في الجزائر؛ فالمَدْيَنية تفرعت عن القادرية والجنيدية. وتفرعت عن المدنينية الشاذلية. وعن هذه الأخيرة

تفرعت طرق كثيرة كالدرقاوية والجزولية واليوسفية والعيساوية والشيخية والطيبية والحنصالية وغيرها.

وإن كانت الشاذلية قد تفرعت أصلا عن القادرية ولكنها أخذت منحى صوفيا يختلف عن المنحى الصوفي القادري.

وقد ذهب أبو القاسم سعد الله إلى اعتبار أن الرحمانية[8] مستمدة أيضا من الشاذلية عن طريق الحنفية[9]. وكذلك السنوسية

8 - أسس محمد بن عبد الرحمن الأزهري الجرجري الطريقة الرحمانية وخلفه علي بن عيسى المغربي الذي دامت خلافته 43 سنة إلى أن توفي عام 1836. ولم تضعف الزاوية الرحمانية إلاّ بعد عام 1857. وكانت لالا خديجة أُمَّ فاطمة وزوجة علي بن عيسى قد طلبت من الأمير عبد القادر أن يتدخل لصالح الحاج البشير المغربي ليتولى أمر الزاوية الرحمانية. وبعد مغادرته تولت هي قيادة الزاوية إلى أن أعاده المريدون بتدخل من الأمير عبد القادر وبقي بها إلى أن توفي رحمه الله عام 1841.

ولم تكن إدارة الزاوية الرحمانية في يد امرأة واحدة ومرة واحدة بل تكررت حين توفي الشيخ محمد بن بالقاسم شيخ زاوية الهامل ببوسعادة عام 1897 فنافست ابنته الوحيدةُ السيدة زينت ابنَ عمها وأخذت منه الزاوية وأدارتها بشكل جيد إلى أن وافتها المنية عام 1904 وهي السنة التي توفيت خلالها إيزابيل إيبرهارد التي كانت تربطهما علاقات قوية. وقد تلقت السيدة زينب تعليما رفيعا على يد والدها. لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، ص -ص. 143، 163 -164.

9 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، ص. وقد يقصد أبو القاسم سعد الله بكلمة الحنفية نسبة إلى الشيخ محمد بن الحسن الحنفي المشهور باسم شمس

أيضا تمتد إلى الشاذلية [10]. وتعتبر الطريقتان القادرية والرحمانية أكثر الطرق انتشارا وقوة خاصة حين اتحدتا فيما بينها وحاربتا التوسع الفرنسي في الجزائر.

ومبادئ القادرية إنسانية لأنها قائمة على حسن التعامل والتسامح مع الآخرين بما فيهم الأجانب. يقول: الشيخ القطب عبد القادر الجيلالي رحمه الله في صحبة الأجانب والتعامل معهم: "إنهم من أهل السلامة فيتجاوز الله عنهم"، يعني هذا أن ينظر إليهم بعين الشفقة ولا تصادر أموالهم مع الصبر على سوء أخلاقهم [11].

ومن غير المستبعد أن يكون لأخلاق الطريقة القادرية الرفيعة دور في دفع كثير من الأجانب إلى الإقبال على اعتناق مبادئها؛ من ذلك ما حدث للمغامرة إيزابيل ايبرهارت (E. Eberhardt) [12] التي كتبت عن الإسلام وعن اعتناقها له، وحبها الشديد لحياة البادية والصحراء. وعن قيامها بمغامرات في وادي سوف وعين الصفراء.

الدين الحنفي المولود عام 775 /847 هـ وليس نسبة إلى المذهب الحنفي. لمزيد من المعلومات يراجع: عبد الوهاب فرحات، **سيدي أبو الحسن الشاذلي**، مكتبة مدبولي، القاهرة 2003، ص -ص. 254 -255

10 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، ص. ص. 70.

11 - **مختصر الغنية**، ص. 188.

12 - لمعرفة شيء عن إيزابيل يراجع:

* Ali Khougja Djamel, "Isabelle Eberhardt, Regard, désirs et création gystique", in, **Revue Sciences Humaines**, No 13, Université Mentouri-Constantine, P-P. 15-26.

ولقد ادعى الفرنسيون أنها كانت تتجسس عليهم لحساب ألمانيا. وقد اتصلت إيزابيل بشيوخ الطريقة الرحمانية أيضا وأسست علاقات طيبة مع السيدة زينت التي أدارت شؤون زاوية الهامل بشكل جيد إلى أن وافتها المنية عام 1904 وهي نفس السنة التي توفيت خلالها إيزابيل إيبرهارد.

وأثناء تواجد إيزابيل بوادي سوف اعتنقت الطريقة القادرية عن طريق المدعو عبد العزيز عثمان، صديق محمد الطيب مقدم زاوية الرويسات، وأخو الهاشمي بن إبراهيم. وقد أعطيت إيزابيل هناك ذكر الطريقة، والسبحة، واللباس الخاص، وصامت رمضان. ومن المؤكد أن اقتناع إيزابيل بمبادئ الطريقة ليس القصد منه القيام بأعمال تجسس بقدر ما هو نابع من صدق نظرتها للطريقة التي أعطت قيمة للمرأة على أساس مكانتها الرفيعة في المجتمع. خلاف ما تعارَف عليه من معاملات منعت المرأة من أن تحتل مكانتها الطبيعية العلمية والاجتماعية كأن تخرج من بيتها وتمارس مهاما تُكامل بها مهام الرجل كأن تتعلم مثلا. لكن بعض الطرق أعطتها حقوقا وشجعتها على الخروج من عزلتها إلى درجة أنها مارست مهاما قيادية في تاريخ الجزائر.

ومن حرص مريدي الطريقة القادرية إقامة الموسم السنوي الذي يعني نشر المحبة بين الناس والتقليل من هموم الدنيا

ومشاكلها. والتبرك والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى. وبعث الشعور في نفوس الفقراء بالمساواة الحقيقية والحرية بين كل الناس ومستوياتهم.

2 - مؤامرة المخابرات الفرنسية ضد الهاشمي الشريف رحمه الله

والمميز في القادرية، وبخاصة في علاقاتها مع فرنسا أنها تعد مصدر قلق مستمر للسلطة الفرنسية، أكثر مما كانت الطرق الأخرى مبعث قلق لها، إذ كما قال أبو القاسم سعد الله: "فهي (فرنسا) لا تستطيع أن تسيطر على الرأس كما تفعل مع الطرق المحلية. إن الأمر بالنسبة للقادرية يتقرر في بغداد أو بيروت" [13]. ولهذا استمرت العلاقة بين شيوخ الطريقة ورجال السلطة الفرنسية في توتر؛ من ذلك ما يمكن أن يقال عما حدث مع الشيخ الهاشمي الشريف.

ولد الشيخ الهاشمي الشريف بن إبراهيم بن أحمد سنة 1853 في نفطة بتونس. وتلقى تعليمه الديني الإسلامي على والده. وبتوجيه من والده الشيخ إبراهيم شيخ الطريقة القادرية على منطقة الجريد بتونس انتقل إلى ناحية الوادي وأسس بها زاوية قادرية. واستمر في

13 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، ص. 56.

نضاله إلى أن توفي رحمه الله عام 1923. وهو دفين مدينة البياضة بولاية الوادي.

والشيخ الهاشمي الشريف من شيوخ الصوفية الذين نجحوا في تصفية الحياة الروحية لكثير من الناس. ومن الذين تركوا تراثا ذا قيمة عالية.

ويمكن تقديم مختصر عن الظروف التي عاصرت نشاط الشيخ الهاشمي الشريف؛ إذ يعتبر سقوط الزعاطشة سنة 1849 بداية المواجهة للجزائرية الفعلية ضد لتغلغل الفرنسي في الجنوب الجزائري بعد احتلال كل من باتنة وبسكرة عام 1844. لأن السلطة الفرنسية حاولت بقيادة الجنرال ديفو الهيمنة على بلدان الصحراء الكبرى. في الوقت الذي كان فيه الجنوب الجزائري بيد قوى جزائرية أمثال الشيخ بوعمامة في الغرب والجنوب الغربي الجزائري. وأمثال شيخ التوارق آمود. وشيوخ السنوسية. وشيوخ الرحمانية بقيادة سي الصادق بالحاج الذي ألقي عليه القبض يوم 20 جانفي 1859. وشيوخ القادرية (الأمير عبد القادر 1847) وخليفته الحاج محمد الصغير. بجانب بوشوشة وجماعة المداقنة التي تأسست عام 1869. وناصر بن شهرة. ومحمد بن عبد الله الشريف الذي أعدمته السلطة

الفرنسية في قسنطينة عام1875 [14]. وأولاد سيدي الشيخ عام 1864 وأهل واحة العمري عام 1876 بقيادة محمد يحي بن محمد.

وبهذا استمر الصراع قويا بين طرفين الأول تمثل في السلطة الفرنسية العسكرية (حملات) والدينية الكاثوليكية (الأب دو فكو). والبرجوازية الأوروبية (رحلات ومشاريع). والطرف الثاني تمثل في السلطة القبلية الجزائرية والروحية الطرقية[15].

في خضم هذه الأحداث السريعة والفاعلة تفطن الشيخ إبراهيم الشريف القادري إلى ضرورة الوقوف بجانب إخوانه الجزائريين والقيام بالجهاد فأرسل من الجريد التونسي ابنه الهاشمي للقيام بهذا الدور بداية بتأسيس زاوية في وادي سوف.

وقامت السلطة الفرنسية من جهتها بتضييق الخناق على نشاط الجزائريين حيث قام ديفو[16] بدور هام تمثل في استعمال القوة الحربية وفي محاولة كسب شيوخ المنطقة فوجه إليهم رسائل متعددة خلال الفترة من 1855 -1859 بقصد إدارة البلاد بأبناء البلاد.

---

14 - للمزيد يراجع: يحي بوعزيز، **الثقافة** ، العدد 34 ، الجزائر 1976.

15 - لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة، 2001، ص -ص. 135 -167

16 - سبق وأن قدمنا موضوعا عن ديفو ومذكراته، ينظر: **من تاريخ الجزائر الحديث**، مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 2000ص -ص - 143 - 173

ومن هذه الرسائل نذكر ما وجه إلى سكان وادي سوف عام 1858 [16].

وقد حيكت مؤامرات كثيرة ضد شيوخ الطريقة القادرية، ومنهم الشيخ الهاشمي الشريف رحمه الله. ومن هذه المؤامرات نذكر القصة الآتية باختصار، وهي أنه حين أقيم للشيخ الهاشمي مقدم زاوية اعميش في تقرت حفلٌ بهيج ترحيبا به بعد عودته من فرنسا؛ حضرها ممثلو الطرق الأخرى كالرحمانية والعيساوية والطيبية، لأن أصولها جميعا قادرية. وحضرتها كذلك إيزابيل ايبرهارت[17] (E. Eberhardt). وقد تخوفت السلطة الفرنسية من هذا الاستقبال الكبير. فعمل غاستون كوفي (Gaston Couvet) رئيس المكتب العربي في الوادي على زرع الفتنة بين القادريين والتيجانيين؛ فحبكَ مؤامرة لاغتيال إيزابيل وتلقت ضربة بالسيف. وقد اتهم الهاشمي الشريف الطريقة التيجانية بتدبير هذا الحادث. ومن جهة أخرى روجت السلطة الفرنسية أخبارا توهم بها الرأي العام بوجود علاقة خاصة بين الشيخ الهاشمي والآنسة إيزابيل. مثلما وظفت حادث الاغتيال هذا على أنه من التعصب الديني الإسلامي.

---

16 - يراجع ما كتبناه في: من **تاريخ الجزائر الحديث**، المرجع السابق. ص -ص. 156 -161

17 - لمزيد من المعلومات يراجع **مجلة العلوم الإنسانية**، جامعة منتوري -قسنطينة

تمكنت المخابرات الفرنسية من دس بعض العناصر في صفوف القادرية وكذلك في صفوف التيجانية المتنافستين لمضاعفة حدة الصراع. والحقيقة أن التنافس كان بين الشيخين الهاشمي الشريف والعروسي. إذ قام المستوطن ديبورتر (Deporter) الذي توفي عام 1892 وهو من مواليد قسنطينة بدور هام تظاهر من خلاله على أنه من أنصار القادرية وقدم لها خدمات في الجزائر وفي تونس بأن ساعدها على تأسيس زوايا لها. ونفس الدور قام به من جهته بوجا (Pujat) تجاه الطريقة التيجانية. فكان الجاسوسان الفرنسيان قد عملا على مضاعفة حدة التنافس بين الطريقتين[1].

3 - من علاقات شيوخ القادرية برجال السلطة الفرنسية:

أسس الشيخ الهاشمي بن إبراهيم الشريف زاوية اعميش بوادي سوف. وكانت له مراسلات مع الزعيم الليبي سليمان الباروني باشا[2] أثناء حرب طرابلس ضد إيطاليا عام 1911 -1912. وكان واسطة هذه المراسلات هو السيد سالم بن أحمد. وكان سليمان الباروني يعتبر الشيخَ الهاشمي من أنصار الدولة العثمانية المتحمسين لها. ومعنى هذا أنه كان في نظر الفرنسيين من أنصار حركة الجامعة الإسلامية. لأنه في هذا التاريخ كان مؤسسو الجامعة

[1] - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4

[2] - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، ص. 53

الإسلامية أمثال السلطان عبد الحميد ينشطون كثيرا ضد الهيمنة الاستعمارية الأوروبية.

ولكن مزاج الشيخ الهاشمي سرعان ما تحول **ظاهريا** إلى فرنسا عند إعلان الحرب العالمية الأولى حيث وجه نداء إلى مختلف الطرق الصوفية بالجزائر يبشرهم بانتصار فرنسا وانكسار ألمانيا، وأصدر حكما على الأتراك العثمانيين وصفهم من خلاله بالبلادة لأنهم ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة.

ورغم كل هذا سرعان ما اتهمته فرنسا بتنظيم الثورة ضدها، خصوصا بعد أن شارك في مظاهرة معادية للفرنسيين في نوفمبر 1918 تسمى في الثقافة الشعبية بهدَّة، رافضا تجنيد الشباب والعمال للخدمة في فرنسا. لأن الإشاعات راجت بأن هؤلاء المجندين سيلحقون بالجيش فور وصولهم إلى فرنسا، وجرت المظاهرة أمام مكتب القائد الفرنسي بالوادي، وكان الهاشمي شخصيا على رأسها وقد نفاه الفرنسيون إلى تونس بعض الوقت[بر]. واستمر يناضل من أجل بلاده إلى أن توفي رحمه الله سنة 1923. وكان من نتائج هذه المظاهرة عدم تمكن فرنسا من تجنيد أي شخص من منطقة سوف.

[بر] - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، ص. 42.

وتولى عبد العزيز بن الهاشمي قيادة الطريقة القادرية بعد وفاة والده رحمه الله. ومن أهم الأعمال الجليلة التي قام بها توصله إلى تقارب وتفاهم مع شيخ الطريقة التيجانية فخفت بعدها حدة التوتر بين الطريقتين. وتبين أن الصراع كان شخصيا لأن المحبة اتسعت بعد وفاة شيخي الطريقتين العروسي والهاشمي رحمهما الله. ويعود الاختلاف بين الشيخين إلى أمر طبيعي هو أن كلاّ منهما يرى نفسه صاحب زعامة شرعية مستمدة من نزعة ربانية. وبهذا التفاهم بين شيخي الطريقتين قطعوا الطريق على السلطة الفرنسية التي كانت تعمل على إثارة النعرات لإضعاف الطريقتين واكتسابهما إلى صفها.

ولم يكتف شيوخ القادرية بإقرار الصلح وحل المشاكل الاجتماعية بل فتحوا باب النضال واسعا والدخول منه إلى تكوين ضمير جمعي جزائري مسلم بالتعاون مع كل الفعاليات الجزائرية؛ ولهذا الغرض انضم عبد العزيز بن الهاشمي إلى جمعية العلماء المسلمين سنة 1937. وفتح مدرسة باسمها في زاويته. ووجه الدعوة إلى وفد من الجمعية لزيارة المنطقة. وتعد مثل هذه المواقف المشرفة من الأسباب التي دفعت الشيخ عبد الحميد بن باديس للقيام بزيارة إلى زاوية اعميش بوادي سوف سنة 1937. وهو ما أحدث خوفا في رجال السلطات الفرنسية فاعتقلت الشيخ عبد العزيز وزملاءه. وأعلنت

حالة الطوارئ في المنطقة متهمة إياهم بالإعداد للثورة وبالتواطؤ مع جهات أجنبية (إيطاليا - ألمانيا). هذه الأحداث هي التي غطاها ابن باديس بعدد من المقالات. وقد وضعت السلطات الفرنسية شيخا آخر من العائلة على رأس الزاوية، واتهمت الشيخ عبد العزيز بالجنون.

وعن علاقة شيوخ الطريقة بفرنسا فيمكن القول إن كثيرا من الجزائريين وقفوا بجانب فرنسا ضد ألمانيا وبالتالي ضد الدولة العثمانية خلال لحرب العالمية الأولى أمثال الهاشمي الشريف والدكتور ابن جلول؛ وفي تقديرنا أن هذا الموقف في حاجة إلى دراسة معمقة من دون التسرع في إصدار حكم يدين أمثال هؤلاء الرجال على أساس أنهم مالوا إلى فرنسا على حساب الشعب الجزائري. نقول في حاجة إلى دراسة كون هؤلاء الرجال ومنهم الهاشمي الشريف كان له بعد نظر أدرك من خلاله أن الوقوف بجانب فرنسا ليس حبا في فرنسا أو "خيانة" للشعب الجزائري؛ كما يحلو للبعض أن يقول هذا؛ إنما هو استراتيجية لصالح الجزائر، لأن الغلبة في النهاية ستكون لفرنسا وهو الذي دفع الهاشمي الشريف رحمه الله إلى توجيه نداء قبل نهاية الحرب"إلى إخوانه يبشرهم فيه بانتصار فرنسا وانكسار ألمانيا" وحكَم ببلادة

الأتراك...لأنهم ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة" [بر بر]. وهو الرأي الذي يبين أن صاحبه كان ذا قدرة فائقة ودراية كافية بنتائج الأمور قلما وجدناها في تنبؤات المفكرين المعاصرين.

نقول إن وقوف هؤلاء الرجال بجانب فرنسا إنما هو استراتيجية لصالح الجزائر؛ أي لربح الوقت. ولتوسيع نفوذ القادرية. وللحصول على الأموال الكافية لتعليم أبنائها. ولمنع فرنسا من محاربتهم؛ أو توجيه لهم تهمة الزندقة أو أي نوع من التهم وهو من السهل عليها ذلك، وبالتالي لتجنب خسائر مادية وبشرية هم في غنى عنها. وهو ما حصل فعلا.

ويوجد أكثر من مؤشر يؤكد هذا؛ فهذا الشيخ الهاشمي الشريف الذي "صار" في نظر كثير من الفرنسيين قوةً في صفها وإذا به يقود مظاهرة ضدها في وادي سوف في نوفمبر عام 1918؛ ويعمل في السر ضدها فتفطنت فرنسا إلى مخططه واتهمته بالتحريض على الثورة ضدها فنفته إلى تونس. ولكنه واصل جهاده إلى أن توفي رحمه الله عام 1923.

ويوجد مؤشر آخر يتمثل في انضمام الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي إلى جمعية العلماء المسلمين. وفتح مدرسة باسمها وتمهيد الطريق لزيارة الشيخ ابن باديس لزاوية اعميش بوادي سوف. أيضا

بر بر - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، ص. 54.

من المؤشرات التي تؤكد جهاد القادرية لصالح القضية الجزائرية ما قام به الشيخ عبد العزيز من عقد صلح مع التيجانية الأمر الذي يبين هشاشة دور المخبرين الفرنسيين الذين أشعلوا النار في أعمدة المجتمع الجزائري؛ ولكنهم فشلوا على الرغم مما لاقاه شيوخ القادرية ومنهم عبد العزيز الذي سُجن برفقة كثير من الشيوخ في سجن قسنطينة.

ونذكر من المؤشرات الأخرى التي تؤكد وقوف القادرية لصالح الأمة الإسلامية ما قام به أفراد من الأسرة القادرية الأميرية في الشام (بيروت ودمشق) مثل الأمير عبد القادر وابن أخيه محمد المرتضي بن محمد السعيد بن محي الدين. حيث كانت الصلة قوية بين أفراد الطريقة في كل من المغرب والمشرق، إذ غاب على فرنسا معرفة مصير الأموال الطائلة التي تنقل من الجزائر إلى المشرق مثلما خفي عليها وصول السلسلة القادرية من بغداد بانتضام إلى شيوخ الطريقة القادرية في الجزائر.

ومن المواقف المشرفة لأفراد أسرة الهاشمي الشريف وقوفهم لصالح الثورة التحريرية وتزويدها بما تحتاجه من ثروة. وتكفي الإشارة إلى ما قام به أحد الأبناء حين تبرع [تر بر] بقصر الباي بتونس

تر بر - الملاحظ أن كثيرا من الجزائريين والعرب الأشقاء قد تبرعوا بمقرات فاخرة لصالح الثورة التحريرية سواء في الأردن أو في مصر أو في تونس. وقد ذكر لي الباحث

الـذي اشـتراه عـام 1946 إلى الثـورة التحريريـة حيـث رُفـعَ فيـه علـم الجزائر ونصبت فيه أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية.

وعملت الطريقـة القادريـة علـى توحيـد قبائـل كـثيرة. ومهـدت الطريـق للوحـدة "الوطنيـة" الجزائريـة الـتي تبلـورت عهـد الأمـير عبـد القـادر. ولم تـدعو القادريـة في يـوم مـا إلى سـفك الـدماء بـين أفـراد الشعب الواحد بل كانت تؤازر حرية الإنسان وتصون كرامته.

فالطرقية وحدت المجتمع روحيا إلى حدّ كبير وهو ما عجزت عنه السلطة العثمانية، وكذلك العلماء الفقهاء لأن للطرق الصوفية نظامـا إداريا، يشـبه الـنظم الإداريـة للحكومـات لـذلك العهـد، ولاسيما فيما يتصل بتسخير الأتباع في استثمار الأراضي والعقارات المحبوسـة علـى زوايـا الطريقـة. وكـذا فيمـا يتصـل برعايـة الأتبـاع وتسييرهم أو حكمهم، كما أن للطرق أسرارا كأسرار الدولة، لم يكـن يطلـع عليهـا سـوى الـذين يتولـون شـؤونها مـن رجـال الطريقة [1].

الفاضل الدكتور يحي بوعزيز أن أحد الجزائريين من اتباع الطريقة التيجانية قد تنازل عن فيلا ذات طابقين يملكها في تونس لصالح الطلبة الجزائريين. وقد استلمها القائد عميروش وخصصها للطلبة بعد أن عين من يديرها.

[1] - العيد مسعود، "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، **سيرتا**، مجلة يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 10، الجزائر 1988، ص. 19

ومن بلاد المغرب العربي انتقلت القادرية إلى إفريقيا بواسطة القوافل التجارية التي صحبها علماء ودعاة ومنهم شيوخ الطريقة القادرية. وبهذا تكون القادرية قد قامت بدور هام بنشر الإسلام الصحيح. وتكوين مصلحين أمثال الشيخ عثمان بن فودي القادري (1754 -1817) الذي يعود له الفضل في نشر الإسلام بإفريقيا. إذ قام هذا **الشيخ** بدور التعليم للرجال والنساء وألف كتابه، **تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ مجلس لأجل تعليم النسوان**، وبدأ بتعليم زوجاته وبناته، مما أهل ابنته أسماء كي تشارك في أنشطة اجتماعية وثقافية وسياسية، وتؤلف عدة كتب. إلى درجة أن صار العلماء يعودون إليها. وأسس مئات المساجد والمدارس والمعاهد والكتاتيب القرآنية وتوفي عام 1817.

وكان الشيخ عثمان الفودي على المذهب المالكي. وأعلن الجهاد في سبيل الله عام 1802، وبايعه أتباعه أميرا للمؤمنين، فأسس بمساعدة من حوله من القادرين دولة كبيرة في بلاد الهوسة، ونيجيريا. واستمرت دولته قوية ما بين سنة 1804 و1904. واستمر بفضلهم نفوذ الإصلاح الإسلامي يتسع في إفريقيا إلى يومنا هذا.

4 - استنتاجات

مما تقدم نخلص إلى الاستنتاجات الآتية:

1. فالتصوف أحدَ مضامين الثقافة الجزائرية.
2. حاربت القادرية الوثنية والتنصير
3. جاهدت القادرية ضد الاستعمار الأوروبي

4. نشـرت القادريـة مبـادئ الشـريعة الإسـلامية وحافظـت علـى مقوماتها.
5. سـاهمت القادريـة في توحيـد صـفوف القبائـل وفي تأسـيس ضـمير جمعي إسلامي.
6. ساهمت الطرقية الصوفية في إثراء التراث الإنساني العالمي.
7. تتأكد حاجتنا في هذه الظروف العصيبة إلى التصوف لأن الأزمات التي نمـر بهـا أخلاقيـة بالدرجـة الأولى. والتصـوف مـا هـو إلا قـيم و أخـلاق، فبالتصوف تنتشر الفضائل وتهدأ النفس. وتصفى الروح.
8. فـالمطلوب مـن الطـرق الصـوفية نشـر الفضـيلة والمحبـة والتعريـف بمناقب كبار الصوفية ومن والاهم من أهل الخير والصلاح.

المراجع

- **حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية**، القاهرة 1963.
- **أبـو القاسـم سـعد الله، تـاريخ الجزائـر الثقـافي**، ج. 4، الطبعـة الأولى، دار الغـرب الإسلامي 1998
- **سعد خميسي**، "حقيقة التصوف"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 12، الجزائر 2002، ص -ص. 76 -97.

- **الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني، مختصر الغنية**، اختصره الشيخ الشاذلي الشاذلي، ج. 1، دار الهدى، الجزائر 1997

- **مجاني بوبة**، "أبو مدين شعيب وشيخه أبو يعزى"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 8، الجزائر 2001، ص -ص. 172 -180.

- **عبد الوهاب فرحات**،

1 - **سيدي أبو الحسن الشاذلي**، مكتبة مدبولي، القاهرة .2003

2 - "أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف المغربي"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 13، الجزائر 2003، ص -ص. 84 -95.

- **عميراوي احميده**،

1 - **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة، 2001

2 - **من تاريخ الجزائر الحديث**، مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 2000

- **العيد مسعود**، "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، **سيرتا**، مجلة يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 10، الجزائر 1988

- **عبد الرزاق إبراهيم عبد الله، الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا**، 1983.

- **يحي بوعزيز**،

1 -**الاستعمار الأوروبي الحديث في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات**، د.و.م. الجزائر 1988.

2 - **الثقافة** ، العدد 34 ، الجزائر 1976.

* Ali Khougja Djamel, "Isabelle Eberhardt, Regard, désirs et création gystique", in**, Revue Sciences Humaines**, No 13, Université Mentouri-Constantine, P-P. 15-26.